الثقافة الإسلامية

(٢١)

الفصل بين الدين والدولة

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومقالات

ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ٢١ -

❊ ❊ ❊

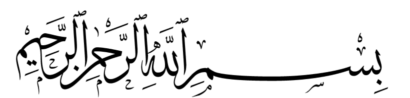
اسم الكتاب: .... الفصل بين الدين والدولة

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الثانية: .... ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة:...... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ﴾

النساء: ٥٩

الحاكمية في رسالات اللّه

قبل أن ندخل تفاصيل البحث عن موقع الحكم في الإسلام، والمناهج التشريعية التي وضعها الإسلام لممارسة الحكم على وجه الأرض، أودّ أن أتحدث بعض الوقت عن موقع الحكم في رسالات الله، بصورة عامة، وموقع رسالات الله على وجه الأرض من حياة الإنسان.

فإنّ ما يقال عن رسالات الله تعالى، يقال عن الإسلام، وما يقال عن الإسلام في جوهره وأصوله، يقال عن رسالات الله بشكل عام.

فإنّ رسالات الله مجموعة متكاملة، تسير في اتجاه وأحد، تخطط لحياة الإنسان وسلامته، واستقراره، وتعبُدِّه لله تعالى، وتُعدُّه للغايات السامية التي خلقه الله تعالى من أجلها. وإذا كانت تختلف عن بعضها في بعض التفاصيل و الأحكام التي تتطلبها طبيعة المرحلية في هذه الرسالات،

فإنّها لا تختلف عن بعضها في جوهرها وأصولها وملامحها العامة.

ولهذا السبب نعتقد أنَّ من الأفضل أن ينطلق البحث في هذا الموضوع، من موقع السيادة والحكم في رسالات الله تعالى، بشكل عام، ليستدرجنا بعد ذلك إلى موقع الإسلام من هذه القضية، وموقعها منه.

فهناك كثيرون من المؤمنين بالله، مسلمين وغير مسلمين، يعتقدون أنّ رسالات الله تعالى، تنتهي عند دعوة الناس إلى عبادة الله، ضمن الطقوس العبادية المعروفة، ثم تهذيب الإنسان في خلقه وسلوكه، وتنظيم ما يتعلق بحياته الشخصية من زواج وطلاق وميراث، وما يتصل بذلك من الأحوال الشخصية.

وما عدا ذلك من شؤون الحياة، فأمره قد أنيط بالإنسان نفسه، يصنع ما يروق له، أو ما تمليه عليه ظروفه، بصورة

فردية أو اجتماعية.

وقد أدّى هذا التصور الساذج للدين ودوره في حياة الإنسان، إلى إقصاء رسالات الله تعالى عن أكثر مجالات الحياة حيوية وفعالية، وعزل المؤمنين بالله عن رسالتهم في مجالات خصبة وفاعلة من الحياة، كما أدّى إلى عزل رسالات الله عن القيام بالدور التغييري البنّاء، الذي أراده الله تعالى لدينه على وجه الأرض.

الدور التغييري لرسالات اللّه

ولست أعرف تصوّراً للدين ودوره في حياة الإنسان، أكثر سطحية من هذا التصور. ولا أعتقد أن في رسالة من رسالات الله، ما يوحي بهذا التصور الساذج، ولا أدري كيف تسرّب هذا التصور إلى أذهان المتدينين؟ فإنّ كل شيء في مسيرة رسالات الله، وتعاليم أحكام الله ينفي هذا التصور، ويعطي الدين طابعه التغييري الحاكم الواضح.

وبغير هذه النظرة التغييرية السياديّة لا نستطيع نحن أن نفهم فهماً واضحاً تاريخ رسالات الله، والإنجازات الكبيرة التي قام بها أنبياء الله، وأبعاد الدعوة التي كان يحمل أعباءها رسل الله على وجه الأرض.

فقد كانت رسالات الله إلى الإنسان تحمل الدعوة إلى حاكمية الله في حياته وهو معنى التوحيد في جوهره وجذوره، ثم التغيير على هذه القاعدة من الشرك إلى التوحيد بالقضاء على الأسلوب الجاهلي في التفكير، والثقافة، وإعادة بناء الإنسان وحضارته ومجتمعه في ضوء رسالة الله ودينه.

وكان الدور الذي تتعهده هذه الرسالات في حياة الإنسان، دوراً قائداً، يهدف إلى تغيير المجتمع وبنائه من جديد، بكل ما في هذه الكلمة من سعة وعمق.

فإن إعادة بناء الإنسان وتغييره، ذو مدلول علمي واسع،

يعني فيما يعني تغيير إسلوبه في التفكير، ونمط حياته، وعقيدته، وفلسفته في الحياة، والنظام الذي ينظّم حياته، والعلاقات الاجتماعية التي يرتبط بها، وعقله، وعاطفته، وإسلوبه في التعامل مع نفسه ومع المجتمع، ومع الكون ومع الله، وأيّ شيء آخر يرتبط بحياته وتفكيره من بعيد أو قريب. وعلى نحو الإجمال.

لقد كانت المهمة التغييرية التي تتعهدها رسالات الله على وجه الأرض، تتلخص في عملية هدم وبناء للإنسان، بما تتطلبه هذه العملية من جهد شاق وعمل صعب.

ولم تكن تخلو مسيرة هذه الرسالات من متاعب ومشاكسات، وعقبات كان يزرعها في الطريق، أولئك الذين كانوا ينتفعون من الحياة الجاهلية.

وكان هؤلاء دائماً يتصدون لهذه المسيرة الإلهية، ويعملون ما في جهدهم لعرقلة سيرها وانطلاقها، ويزرعون

في طريق هذه الرسالات ما يستطيعون من عقبات وألغام ومشاكل.

ولم يكن يحدث شيء من ذلك، لو لم تكن هذه الرسالات تحمل معها هذه المسؤولية التغييرية الكبيرة.

ولم تكن تواجه هذا التصدي العنيف من جانب الطواغيت المستكبرين على وجه الأرض، لو لم تكن تشكل خطراً فعلياً على الكيانات الاجتماعية القائمة.

وكل ذلك وغيره يدل بكل وضوح، على أنّ مسيرة رسالات الله مسيرة تغييرية قائدة،لا تتهاون ولا تساوم، ولا تلين للإغراءات، ولا تخضع لما تلاقيه من ضغوط سياسية واجتماعية، ولا تعبأ بما يلاقيه أصحابه من عنف وقسوة في التعامل من قبل المجتمع.

موقف الإسلام من مسألة الحكم

وهذا فيما أعتقد منطلق جيد للبحث عن موقع الحكم من الإسلام، خاتمة رسالات الله.

فإنّ الإسلام قمّة هذا الامتداد الرسالي الذي شرعه الله في حياة الإنسان، منذ أن أخذ الإنسان ينحرف عن خط الفطرة. ولا يختلف الاسلام عن سائر رسالات الله في شيء ممّا يتصف به من أصالة ووضوح، عدا أنّ هذه الأصالة تتصف بعمق أكثر ووضوح وتركيز أكثر من ذي قبل في خاتمة الرسالات.

والأصالة التي لمسناها في رسالات الله، في هذه المسألة، نلمسها في الإسلام بشكل أكثر وضوحاً وتركيزاً في الجانب النظري والتشريعي، وفي الممارسة الحية التي قادها القائد والمعلم الأول لهذه الرسالة ﷺ.

وبهذا الشكل، تمتزج مسألة الحاكمية والحكم بهذه

الرسالة الخاتمة امتزاجاً قوياً، وتتفاعل معه تفـاعلاً عضـوياً، في كل جوانبها وأطرافها، من عقيدة، وتشريع، حتـى يكـاد أن يصعب فرز بعضها عن بعض، لنتناوله بدراسة مستقلة.

أصالة الحاكمية في هذا الدين

١ ـ من الناحية الاعتقادية:

كان من الواضح يوم بعث النبي ﷺ في الجزيرة العربية، أنّ مهمة هذا الدين مهمة تغييرية ذات أبعاد وجذور عميقة في هدم الحياة الجاهلية، بما فيها من شرك وعبادة للأوثان وعادات وتقاليد جاهلية، وفي القضاء على السلطة التي كانت تمارس الحكم في الجزيرة، وفي كل أطراف العالم؛ لتبني على أنقاض ذلك كله الحياة الإسلامية، التي كانت تختلف اختلافاً كلياً عن الحياة الجاهلية في أعرافها، وتقاليدها، ومفاهيمها، ونظمها، وعقيدتها، وأهدافها، ولتتسلّم السلطة ليكون الحكم لله، وتكون شريعة الله هي الحاكمة في حياة الإنسان، وكلمة الله هي العليا. وقد أدركت الجاهلية أبعاد هذه المهمة التغييرية يوم بعث النبي ﷺ وأعلن دعوته في الجزيرة

بوضوح، وأدركت خطر ذلك على الحياة الجاهلية، وعلى ما تستفيده القلّة الحاكمة من مكاسب مادية ومعنوية من الحياة الجاهلية.

وكان هذا هو في الغالب سبب المعارضة الشديدة التي أعلنتها قريش في وجه النبي ﷺ والدعوة الإسلامية.

فإنّ كلمة التوحيد التي أعلنها النبي ﷺ، كانت تنطوي في إيجازها على عمق عميق لم يخف يومذاك على قريش، وهي تسمع النبي ﷺ يعلن دعوته في إيجاز وجرأة وإصرار.

وإذا كانت قريش بحسّها السياسي المرهف قد أدركت الخطر منذ اليوم الأول الذي ظهر فيه هذا الدين في الجزيرة نتيجة لاحتكاكها المباشر بهذه الدعوة، فإنّ اليهودية والمسيحية العالمية لم تفتها هذه الحقيقة أيضاً، ولكن بعد ما انتقلت الرسالة إلى قاعدتها الأولى في المدينة المنوّرة،

وأقام النبيﷺ في المدينة نواة أوّل دولة إسلامية، يحكمها الإسلام وينظّم شؤونها وعلاقاتها، ويخطّط لكل ما يتصل بحياتها. ويومذاك انتبهت لخطر هذا الكيان الجديد، الذي جاء ليغيّر معالم الحياة كلها، ويتسلّم الحكم على وجه الأرض كلها، وليحقق حكم الله على أوسع بقعة من الأرض.

ولئن كانت هذه الدعوة تتصل بأوثق الروابط برسالة موسى وعيسى عليهما السلام، فلا تتصل باليهودية والمسيحية التي عاصرت ظهور هذه الرسالة في شيء.

وقد تأكدت من هذه الحقيقة في الدين الجديد، فأعلنت الحرب في وجهه بكل قوة، وبكل وسيلة، وبدأتها اليهودية في المدينة، وحينما فشلت في كل مؤامراتها ومكرها وخبثها، تناست خلافاتها مع قريش، والتحمت معها في حرب ضد المسلمين في واقعة الأحزاب، وإذ ردّ

الله مكرهم إلى صدورهم، جدّدت المحاولة لتلتحم هذه المرّة مع المسيحية في الشام، التي كانت قد شعرت بواقع هذه الدعوة في وقت متأخّر، وقد تناست اليهودية هذه المرة أيضاً كل خلافاتها التاريخية مع المسيحيين للقضاء على العدو المشترك، واشتبكتا مع المسلمين في حرب تبوك.

وقد أراد الله أن تخرج الجبهة اليهودية من هذه الحرب التي مهّدوا لها عن فشل ذريع. واستمرت هذه المؤامرات والمحاولات للقضاء على هذه الدعوة على امتداد التاريخ الإسلامي كلّه. والحقيقة الواضحة في هذه المعارضات كلها وعلى اختلاف مستوياتها، أنّ الجاهلية أدركت منذ اليوم الأوّل من ظهور هذه الرسالة في مكة، أنّ هذا الدين الجديد جاء ليحكم على وجه الأرض، وليتسلّم السلطة، وليحقق حكم الله على وجه الأرض في قوة وقدرة

وسلطان، ولم يأت ليعيش في ظلّ أصحاب العروش والتيجان. وجاء إلى الناس بأخلاقية حركية فعالة، تدفع إلى الإسهام الجادّ والبنّاء في الحياة، رافضاً، الأخلاقية السلبية التي تدعو إلى الانعزالية والرهبنة في الحياة.

وهذه الحقيقة هي أوضح ما في هذا الدين من بعد كلمة التوحيد والصلاة، بل إنّ كلمة التوحيد ذاتها التي حملها النبي ﷺ، تحمل في أعماقها هذه الحقيقة بوضوح.

ولئن شككنا في أيّ شيء، فلا نستطيع أن نشك في هذه الحقيقة التي كلّفت حَمَلة هذه الرسالة الكثير من العناء، وجعلتهم في صراع دائم مع الجاهلية على امتداد تاريخ هذا الدين.

٢ ـ من الناحية التشريعية:

والذي يدرس بإمعان الجانب التشريعي من هذه الرسالة، سوف يخرج بقناعة كافية، بأنّ هذا الفقه فقه قائد

في الحياة، ولا يقتصر نطاق عمله ومسؤوليته على العبادات والأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث، وإنّما يتولى إدارة المجتمع، ويعمل لتنسيق الحياة الاجتماعية بكل أبعادها. وبشيء من الملاحظة الفقهية، يكتشف الإنسان، أنّ هذا الفقه يتجه في خطّه العام إلى أحداث جهاز اجتماعي وسياسي حاكم يتولى شؤون المجتمع.

وكثير من أحكام هذا الفقه موضوع لهذه الغاية، وضمن هذا الإطار،فإذا اُنتزع عن إطاره الطبيعي، الذي هو الدولة الإسلامية، وطُلب تنفيذه في غير هذا الإطار، ظهر عليه أنّه حكم غير عملي، وأنّه لغير هذا العصر، أو كان يصعب تنفيذه وتحقيقه.

وليس السبب من نقص في الحكم الشرعي، وإنّما السبب كله، أنّ هذا الحكم قد وضع ضمن إطار الدولة الإسلامية، ولتنسيق أجهزة هذه الدولة. وعندما ننفّذ نحن

اليوم هذا الحكم في غير إطاره الطبيعي، نواجه مشاكل ومتاعب في تنفيذه.

كما أنّ تعاليم هذا الفقه وأحكامه، كانت في عصر التشريع تعاليم للدولة، وأحكاماً لها، وكانت تُفهم وتُنفذ على هذا الأساس. ونحن اليوم نأخذ بهذه التعاليم والأحكام ونفهمها في إطار فردي. ومن الواضح أن لا يكون لهذه الأحكام والتعاليم ذلك العطاء الذي كان لها عندما كانت تُفهم وتُنفذ في إطار اجتماعي، وضمن جهاز الدولة.

فإن قوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[1] مثلاً، تعليم للدولة، وتوجيه لأجهزة الحكم، وكان المسلمون يفهمونها وينفّذونها ضمن هذا الإطار الاجتماعي الحاكم، وكانت

---

(١) المائدة:٢.

الآية الكريمة تتجسد في المجتمع ضمن أجهزة وتركيب اجتماعي يخصّ هذه الغاية.

ونحن اليوم أيضاً نفهم هذا التوجيه وننفذه، ولكن في نطاق فردي، وعلى شكل مبرّات وصدقات فردية، يدفعها الفرد منا، عندما يواجه فقيراً أو عاجزاً.

ومن الطبيعي جداً أن لا يكون لتنفيذ هذا الحكم في حياتنا، ذلك العطاء الذي يكون له في إطار الحكم والسيادة القائمة على هذا التشريع. والسبب كل السبب في هذا وفي غيره، أنّ هذا التشريع بشكل عام قد وضع ضمن هذا الإطار الاجتماعي والسياسي الحاكم، فإذا انتزع من إطاره الطبيعي الذي وضعه الله فيه، أدّى ذلك إلى نتيجتين اثنتين، **أولاهما:** صعوبة تنفيذ بعض أحكام هذا الفقه.

وثانيتهما: ضعف العطاء الذي تجنيه الأمة من تنفيذ أحكام هذا الدين.

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه الطبيعة الاجتماعية، والقيادية في تركيب التشريع الإسلامي ذات دلالة كافية لتوضيح طبيعة هذه الرسالة بشكل عام، وعلاقتها بالمجتمع وموقفها من مسألة الحاكمية والحكم.

فالنظام المالي مثلاً في التشريع الإسلامي، بعرضه العريض وبما وضع فيه الإسلام من موارد مالية ضخمة، تكفي لسدّ حاجات دولة، لم يكن الغرض منه بالتأكيد، سدّ العوز والحاجة الفردية، وإعانة بعض الفقراء والعوائل المحتاجة فقط. فقد وضع الإسلام في هذا المخطط المالي الكبير نظاماً واسعاً للجباية، وتشريعاً للضرائب الثابتة، وأعطى للحاكم الإسلامي صلاحيات واسعة في فرض ما تقتضيه الضرورة والمصلحة من الضرائب المالية. وجعل ملكيّة الثروات الطبيعية كالمعادن والبحار والأنهار، وكثير من الموارد الطبيعية للإمام ولي الأمر تحت عنوان الانفال.

وليس من شك أنّ هذا التشريع المالي الواسع، لم يكن الغاية منه القيام بتعهدات مالية لحالات فردية، وإيواء لبعض المساكين والفقراء والضعفاء،كما نحن نستعمل اليوم هذا النظام، وإنّما كانت الغاية منه سدّ حاجات الدولة وإدارة مرافقها، وتوفير موارد مالية كافية لحالات الحرب والسلم، وللأغراض العمرانية والمعيشية للدولة، ولتوفير الأمن الإجتماعي والسياسي والإقتصادي للمجتمع وأجهزة الحكم.

وليس من شك أنّ قطّاعاً واسعاً من المسلمين يمارسون اليوم تنفيذ هذا النظام، ويستفيدون منه في سد الحاجة المادية للحالات الفردية، ولكنّ هذه الممارسة تتمّ في نطاق فردي، وفي إطار العلاقات الفردية. ومن الطبيعي أن لا يؤتي هذا النظام في ظل هذه الممارسة الفردية ثماره المترقبة.

ومثل آخر لهذا التركيب الاجتماعي الحاكم في الفقه الإسلامي، التشريع القضائي الواسع الذي وضعه الإسلام لفصل الخصومات فيما بين الناس، وإحلال الوئام والسلام في العلاقات الاجتماعية، والصلاحيات التنفيذية الواسعة، التي أعطاها الإسلام للقاضي في حلّ الخصومات فيما بين الناس.

وبالتأكيد لم يكن الغرض من هذا التشريع الواسع، أن يمارس القاضي مهمّة القضاء بين الناس بصورة فردية، أو في ظل حكومات ظالمة جائرة، لا تعترف بدين الله تعالى وشريعته.

وكذلك الأمر في تشريع الجهاد والدفاع، والأحكام التي وضعها الإسلام للدفاع عن حوزة وطن الإسلام لجهاد الكفار، لئلا تكون فتنة، ويكون الدين كلّه لله. إنَّ هذا التشريع الهادف الموسّع، الذي نسيه المسلمون اليوم فيما

نسـوه مـن أحكـام ديـنهم، لا يمكـن تنفيـذه إلاّ فـي ظـل حكومة إسلامية،تحكم بدين الله، وتعمل على تنفيذ حكـم الله على وجه الأرض.

وتشريع الأحكام التي تخصّ أهل الذمـة، والعنايـة التـي يوليها بهم الفقه الإسلامي، يـدل علـى أنّ مهمـة هـذا الفقـه ومسؤوليته في حياة الإنسان، لا تنحصر في نطاق المسلمين، وإنّما تشمل دار الإسـلام فـي نطاقهـا العـريض بمـا فيـه مـن مسلمين وغير مسلمين من أهل الذمـة، الـذين يعيشـون فـي كنف الإسلام ورعايته من أهل الكتاب.

ومن هذا الباب أيضاً الصلاحيات الواسعة التـي يمنحهـا التشريع الإسلامي لولي الأمـر ونائبـه الفقيـه المتصـدّي فـي الولاية على حياة الناس، فلا يمكننا - نحن - أن نفهم هـذا الحكم الشرعي، وهذه الصلاحيات التنفيذيـة الواسـعة التـي ينيطها المشرّع الإسـلامي بـولي الأمـر ونائبـه، إلاّ فـي إطـار

دولة إسلامية تحكم بشريعة الله.

وعلى نحو الإجمال، نرى أنّ هذا التشريع قد امتزج امتزاجاً شديداً بمسألةً الحاكمية والحكم، وتفاعل معه، بصورة قوية، حتى كاد لا يمكن عزله وتفكيكه عن كثير من أحكام هذا الفقه وأبوابه.

وكلّ ذلك يدل على أنّ هذا الفقه جاء ليقوم بدور قيادي حاكم على وجه الأرض، ويُعدّ جهازاً بشرياً قائداً، يتولى الحاكمية على عباد الله، في ارض الله، وبمنهج الله تعالى وشريعته.

٣ ـ من الناحية التنفيذية:

ولم يكن أمر الحاكمية في حياة هذه الأمة، قضية اعتقادية وتشريعية فقط، وإنّما دخلت في حياة هذه الأمة من أوسع أبواب التاريخ، وتجسدت في حياتهم، وتفاعلت مع التاريخ الإسلامي على شكل ممارسة فعلية جادة، لإقامة

الحكـم الإسـلامي علـى وجـه الأرض، أو ممارسـة فعليـة لشؤون الحكم والإدارة في حياة المسلمين.

وأسّـس هـذا الأسـاس القائـد والمعلّـم الأول لهـذه الرسالة ﷺ، فأقـدم علـى تشـييد قواعـد الحكـم الإسـلامي على وجه الأرض، فقهياً مـن الناحيـة النظريـة، وعمليّاً مـن حيث الممارسة.

وفيمـا يلـي نسـتعرض صـورة عـن هـذه المحاولـة والممارسة في التاريخ الإسلامي لإقامة حكم الله على وجه الأرض، وممارسـة شـؤون الحكـم والسياسـة والإدارة، فـي ضوء من نهج هذا الدين في حياة الإنسان.

التجربة الرائدة

والممارسة الأولى الرائدة في هذا المجـال، تتجسـد فـي سـيرة رسـول الله ﷺ، القائـد الأول لهـذه الرسـالة، والـذي

أرسى قواعد أول ممارسة فعلية لحكم الله على وجه الأرض في تاريخ هذا الدين.

ودراسة السيرة النبوية تعطينا الوضوح الكافي في هذه المسألة. فلا يشك أحد يقرأ سيرة رسول الله ﷺ، أنّ أمر إقامة حكم الله على وجه الأرض، وإنشاء الدولة الإسلامية، كان من أهم الأهداف التي كان رسول الله ﷺ يسعى من أجل تحقيقها، بعد الدعوة. بل كانت الدعوة هي توحيد الله تعالى بالعبادة والعبودية والطاعة.

وكل الجهد الذي بذله رسول الله ﷺ في حياته الكريمة، كان يتلخص في الدعوة إلى عبادة الله تعالى، واستعادة الحاكمية في حياة الإنسان من الطواغيت، إلى الله تعالى، وتسلّم زمام الحكم، وتكوين دولة للإسلام على وجه الأرض، تنفذ أحكام الله، وتتولى القيادة والزعامة في الأرض بأمر الله.

وقام رسول الله ﷺ بأعباء هذه المهمة الرسالية في حياته، ضمن مخطط متكامل في مراحل من العمل، تختلف متطلبات

كل مرحلة منها، عن متطلبات المرحلة التي تليها، وكان ﷺ يعمل في كل مرحلة من مراحل هذا العمل الشاق، بما تتطلبه المرحلة وما يلائمها من عمل، حتى تأتّى له أن يقيم في المدينة المنورة قاعدة للممارسة الأولى لهذه الدولة، وأن يقود من خلال هذه القاعدة نواة دولة كبيرة شعّت على وجه الأرض، وانتزعت الحكم من الطواغيت والمشركين، رغم كل الإنحرافات التي رافقت تاريخ هذه الدولة من ناحية الحكّام والأُمراء الذين حكموا المسلمين.

* * *

وفيما يلي دراسة موجزة عن التخطيط السياسي في السيرة النبوية على صاحبها وآله الصلاة والسلام، تتبلور فيها قضية حاكمية الإسلام وسيادته في حياة الإنسان النابعة من حاكمية الله تعالى التي هي جوهر التوحيد وروحه.

التخطيط السياسي في السيرة النبوية

سرّية العمل:

يتضمن هذا التخطيط مرحلتين من العمل السياسي التغييري تفصل بينهما الهجرة.

ففي المرحلة الأولى، حيث تبدأ الرسالة مسؤوليتها التغييرية في مكة، بدأ النبي ﷺ بإعداد الطلائع المؤمنة لتحمّل هذه المسؤولية والقيام بها، في سرّية و خفاء، فلم يعلن النبي الرسالة إعلاناً، وإنما كان يتكتّم بها، ولم يمارس عمله، إلاّ في كتمان وحذر شديدين، حرصاً على الرسالة التي لم تترسّخ بعد في المجتمع الجاهلي، ولم تقطع بعد شوطاً من الطريق الطويل، أن تتعرض لأذى المشركين ومعارضتهم، التي كان يقدّر صاحب الرسالة أن تكون قوية وشديدة، وتحمل كل أحقاد الجاهلية وأضغانها.

فلم تكن الدعوة في هذه المرحلة من وجودها، تتحمل مواجهة قوية، كتلك المواجهة التي أعلنتها قريش في وجه الرسالة الجديدة بعد إعلانها، وكان من الحكمة أن يتحفّظ النبي ﷺ ما أمكنه التحفظ، من أن يعرّض هذا الدين لحملة إبادة من جانب قريش، أو حرب من جانب اليهود.

وتوافر لهذا الدين - خلال فترة سرية العمل - العدد الكافي من الطلائع التي تحمل مسؤولية هذه الرسالة بجدارة وقوة، وفي إيمان وإخلاص كبيرين.وكان محل اجتماع هذه الطليعة بقائدها خلال هذه الفترة في الغالب، دار أرقم بن أبي الأرقم، الذي جعل بيته خليّة عمل لإلتقاء رسول الله ﷺ بطلائع المؤمنين، وفي هذه الدار كان النبي ﷺ يوجّه أصحابه، ويوزّع عليهم المسؤوليات في حدود ما تقتضيه المرحلة من عمل، ثم ينتشرون في مكة قاعدة الدعوة الأولى، ليمارسوا مهامهم و مسؤولياتهم.

إعلان الدعوة:

وإذ وجد النبي ﷺ العدد الكافي الذي يضطلع بهذه المهمة، ويحمي الرسالة، ويدافع عنها، بدأ بإعلان الدعوة في مكة بالتدريج، وبدأ بتسفيه قريش فيما يعملون من عبادة الأصنام وفي أعرافهم وتقاليدهم.

وقد أثار ذلك موجة من النقد العنيف في وجه رسول الله ﷺ وأصحابه، وعرّضهم لأذى قريش وتعذيبها. وكانت قريش قد لمحت في هذا الوقت، خطر هذه الرسالة على كيانها ووجودها أكثر من ذي قبل، مما دعاها إلى أن تقف بقوة في وجه الرسالة الجديدة، للقضاء عليها قبل أن تترسخ في مجتمع مكة.

سياسة اللاّعنف:

ولم يكن من الحكمة في هذه المرحلة، أن يردّ النبي ﷺ الأذى بالمثل والقوة بالقوة، والعنف بالعنف؛ فقد

كانت الرسالة لا تزال تقطع بدايات الطريق. ورغم أنّها كانت قد قطعت شوط السرية في العمل، فإنّها لم تكن تقوى على مواجهة العنف بالعنف، وتصعيد المواجهة والحرب مع قريش.

ولم يجد النبي ﷺ بدّاً، من أن يردّهم باللين ويتغاضى عمّا يصيبه من الأذى، ويأمر أصحابه بالصبر واللين والتغاضي.

يقول تعالى في تبيين هذه المرحلة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾[1].

وكانت هذه السياسة – سياسة اللاّعنف في مواجهة العنف الذي كانت تستعمله قريش – تؤذي قريش وتربكها

---

(١) النساء:٧٧.

أكثـر مـن أي شـيء آخـر، وتقطـع عليهـا سـبيل العنـف والمقاومة المسلحة. ورغم كـل ذلـك، فقـد كانـت قـريش تصـعّد المقاومـة، وتعـرّض أصـحاب النبـي ﷺ للتعـذيب والأذى أكثر من ذي قبل.

وقـد بلغـت هـذه المواجهـة قمّتهـا فـي مقاطعـة قـريش للنبـي ﷺ، وأهـل بيتـه وأصـحابه فتـرة طويلـة مـن الـزمن، تحمّل المسلمون خلالها كثيراً من الأذى والعنت.

التخطيط لإعداد قاعدة جديدة:

كل ذلك دعا رسول الله ﷺ أن يخطّط لإعـداد قاعـدة جديـدة للـدعوة، حتـى إذا مـا اشـتدت الأزمـة، وتعرضـت الرسـالة لخطـر جـدّي، ينتقـل إليهـا ويجعلهـا قاعـدة لعملـه ومنطلقاً للرسالة، فتوجّه النبي ﷺ إلـى الطـائف ليبشّـر فيهـا برسالته، وليجد فيها أنصاراً وأعواناً، يهيئـون المنطقـة لتكـون القاعدة الجديدة التي كانت تشغل تفكير النبي القائد ﷺ في هذه الفترة.

وإذ لم يقدر النبي ﷺ أن يجد في هذه المنطقة غايته، وجّه جمعاً من أصحابه إلى الحبشة، ليُعِدّوا هذه المنطقة، لتكون المنطلق الجديد للدعوة. ولم تكن الغاية من هذه الهجرة، أن يحفظ رسول الله ﷺ أصحابه من أذى قريش وتعذيبهم، كما يحسب بعض المؤرخين. فقد بعث النبي ﷺ جمعاً من كبار أصحابه، وممن كانت تحميهم عشائرهم، ومكانتهم في مكة من ملاحقة قريش وأذاها، من أمثال جعفر بن أبي طالب وغيره، وأبقى في مكة آخرين من الضعفاء، الذين لم تكن تحميهم عشيرة أو مكانة.

وقد أدركت قريش ما كان يريده النبي ﷺ من وراء هذه الهجرة، فبعثت إلى الحبشة نفراً منهم بهدايا يحملونها إلى ملك الحبشة، لإحباط المهمة التي بعث النبي ﷺ أصحابه من أجلها.

ولم يترك رسول الله ﷺ الأمر مع ذلك، فقد كانت فكرة الانتقال بالدعوة إلى قاعدة جديدة تشغل تفكير رسول الله ﷺ، فإنَّ مكّة لم تعد تصلح لأن تكون القاعدة الحصينة التي تتطلبها الدعوة، ولابدّ لهذه الرسالة من قاعدة جديدة تتمتع بالحصانة الكافية، ولا تجد قريش إليها سبيلاً.

فمكة قد شعرت بالخطر بوضوح، وهي على وشك أن تنقضّ على الدعوة بكل قواها وإمكاناتها.

وقد اتسعت رقعة نفوذ الإسلام، ووجد العدد الكافي من المؤمنين برسالته، والرصيد الكافي لإقامة المجتمع الإسلامي الذي كان يخطط له رسول الله ﷺ، ضمن هذه المرحلة في صبر وحكمة. وإذا كانت مكة لا تصلح أن تكون القاعدة المطلوبة، فلابد من التفكير في قاعدة جديدة ينتقل إليها القائد برسالته وعمله وأنصاره. فأخذ النبي ﷺ يعرض نفسه للحجّاج، الذين يأتون لحجّ بيت الله

الحرام في موسم الحجّ من كل سنة. ويعرض عليهم الرسالة بمفاهيمها، وأفكارها الجديدة، ويدعوهم إلى الإيمان بها.

وقد كان رسول الله ﷺ يبتغي من وراء هذا العرض فيما يبتغي، أن يجد القاعدة الجديدة التي كان يفكّر بها خارج مكة.

الهجرة:

وقد قدّر الله لرسوله بعد كل هذه المحاولات، أن يجد في حجاجّ يثرب وفي يثرب غايته التي كان ينشدها.

فانتقل رسول الله ﷺ إلى يثرب برسالته وأصحابه بعد أن مهّد لذلك، وفي هذا الوسط الجديد أقام النبي ﷺ المجتمع الإسلامي الذي كان يخطط له الإسلام ويحكمه. وهنا تبدأ المرحلة الثانية من حياة النبي ﷺ وجهاده، وهي

مرحلة تختلف كل الاختلاف عن المرحلة الأولى من حياة رسول الله ﷺ وعمله. ففي هذه المرحلة تدخل الدعوة مرحلة تسلّم الحكم، ويتسلم النبي ﷺ كقائد أول لهذه الدعوة زمام الحكم في المجتمع الجديد، بكل ما يرتبط بالحكم من شؤون القضاء والإدارة والسياسة والمال والاقتصاد والجيش. ويدخل المدينة حاكماً يُقِرُّ له المجتمع بهذا الحق وينقاد له. وكان هذا أعلاناً بانتهاء فترة، وبدء مرحلة أخرى من العمل، وإعلاناً لطبيعة هذه الدعوة وأصالة الحاكمية فيها ورأيها في الحكم، ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾.

وقد كان هذا المعنى واضحاً للمسلمين من المهاجرين والأنصار، الذين أقاموا هذا المجتمع، فلم يستغرب أحد منهم أن يقيم رسول الله ﷺ دولة، وأن يتولى في هذا المجتمع شؤون الحكم والإدارة والسياسة والحرب. وكان

واضحاً لغير المسلمين أيضاً. فقد عرفوا من طبيعة هذه الرسالة، إنّها رسالة حاكمة، وأنّ النبيﷺ إذا ما تحول إلى المدينة فسيدخلها حاكماً، ويتسلم فيها زمام الحكم والإدارة والحرب والسلم والمال.

الموقف الجديد:

وقد تغيّر كل شيء من موقف هذا الدين تجاه أعدائه ومناوئيه. فبينما كان الموقف في مكة يتسم بكثير من اللين والمرونة من جانب المسلمين وكان المسلمون يكفّون أيديهم عن أذى قريش وإضطهادها لهم، تحوّل الموقف في المدينة إلى موقف القوة وردّ العنف بالعنف والاعتداء بمثله، وكان من الطبيعي جداً، أن ينطوي التخطيط النبوي على هذا التفكيك في المرحلة، من حيث موقف المسلمين إزاء أعدائهم ومناوئيهم. فقد كان المسلمون في مكة ضعفاء ولا يقوون على مواجهة الاعتداء بمثله. وأيّ عنف

في المواجهة من جانب المسلمين، كان يؤدي إلى احتدام الصراع بين الرسالة الجديدة والجاهلية الحاقدة، وإلى القضاء على الطليعة المؤمنة التي كانت تحمل مسؤولية الرسالة في تلك المرحلة من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وحينما تحوّل المسلمون إلى المدينة، تغيّر الوضع وأصبح المسلمون قوة في الجزيرة العربية.

إذن فلا بد أن يتغير الموقف من لين إلى عنف، ومن ضعف إلى قوة، ولابد أن يتكيف المسلمون مع الوضع الجديد الذي تتطلبه المرحلة.

فليس من رسالة الإسلام استعمال العنف في تحقيق أهدافه وإنّما سبيله إلى ذلك الإمتناع والتثقيف والتوجيه والإرشاد، ولكنّه عندما يواجَه مواجهة تستخدم القوّة والإرهاب في صدّ الرسالة عن مشروعها التوحيدي الإيماني والثقافي لا يتردّد في دفع القوّة بالقوّة والإرهاب

بالإرهاب ﴿**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ**﴾ والعنف بالعنف، فإنّ الإرهاب والعنف بغاياته، فإن كانت الغاية صالحة صَلُحَ الإرهاب والعنف لتحقيق تلك العدالة، وإن كانت الغاية فاسدة كان الإرهاب والعنف من عوامل الإفساد في المجتمع، وقد كانت الجاهلية المتمثّلة في قريش تريد يومئذ أن تصدّ هذا الدّين عن أداء رسالته على وجه الأرض وأن تزاحم كلمة الله، وحكمه وسلطانه في المجتمع، وتتحكم في مصير الإنسان.

وأيّ لين أو مرونة في مواجهة العدو في هذه المرحلة، يؤدي من دون ريب إلى فسح المجال له بمصادرة الغايات والأهداف التي يتوخاها هذا الدين في تحكيم كلمة الله، وتحكيم شريعته ودينه على وجه الأرض.

ولذلك فقد كان الإسلام في هذه المرحلة جدياً في مواجهة المشركين واليهود، وفي تفويت الفرص عليهم،

وفي تصفية قواعدهم.

فقد كانت مسألة الحكم صراعاً بين الإسلام والجاهلية.

وكان لابد في هذا الصراع من شيء كثير من القوة، ومن الجدّية ومن العنف أيضاً، حينما كان الأمر يتطلب العنف والجدّ.

التخطيط العسكري:

وقد كانت الحروب التي خاضها رسول الله ﷺ في مواجهة قريش، والقبائل العربية الموالية لها في الجزيرة، آية في التخطيط العسكري، وقمة في القيادة.

والتخطيط والإدارة مسألتان جوهريتان في هذا الدين، والقيادة والحكم جزءان أصيلان من منهج هذا الدين.

فقد بدأ النبي ﷺ يخطط للإستيلاء على الجزيرة، وتحكيم شريعة الله فيها منذ أن دخل إلى المدينة، وكانت قريش عقبة كبيرة في سبيل تحقيق هذه الغاية، كما كان

اليهود يعتبرون العقبة الثانية، وقد كان يلتف حول قريش بعض القبائل المحالفة لها.

فبدأ رسول الله ﷺ بالعمل على تصفية قواعد العدو، وكانت مكة من أقوى هذه القواعد التي كانت تصمد في وجه النبي ﷺ.

الحصار الاقتصادي:

وللقضاء على صمود مكة، بادر النبي ﷺ بتهديد الطريق التجاري، الذي كان يربط مكة بالشام، والذي كان يقع على ساحل البحر الأحمر. وقد كان هذا الطريق هو العصب الرئيسي الذي يمدّ مكة بكل ما تريده من متطلبات الحياة في ذلك الوقت، من سلاح وتجارة.

وقد كانت تجارة قريش مورداً مادياً ومعنوياً لها في أوساط الجزيرة، وكانت القبائل العربية المحيطة بمكة،

تقصد مكة بما لديها من مال ومنتجات زراعية ومواشي، لتشتري من مكة ما تحتاجه من سلاح وبضائع مستوردة من الشام.

وحين خطّط رسول الله ﷺ لتهديد الطريق، وتهديد تجارة قريش، كان يعلم أنّه قد وجّه بذلك ضربة قوية لكيان قريش التجاري والسياسي، وفعلاً نفّذ رسول الله ﷺ هذا التخطيط في حرب بدر، ونجح المخطط في تهديد تجارة قريش.

وقد عادت قريش في عام مقبل لاستعادة مكانتها، وإعادة الأمن إلى تجارتها، وأصيب المسلمون بإنتكاسة في هذه الحرب (حرب أحد)، ولكن الطريق لم يعد لقريش مرّة أُخرى، ولم تسلم قريش على تجارتها، وانتكست اقتصادياً، ومعنوياً كذلك، حيث انقطعت عنها البضائع التي كانت تأتي بها تجارتها من الشام، وفقدت أسواق مكة

مركزيتهـا التجاريـة، وفقـدت قـريش موقعهـا المتميّـز فـي الجزيرة.

ولئن لـم ينتبـه المسـلمون يومـذاك، إلـى أهميـة العمـل الذي قام به رسـول الله ﷺ مـن ناحيـة سياسـية وعسـكرية، وتأثيره الكبير في شلّ الحياة الاقتصادية لمكة، فقد عرفـت أوروبـا بعـد قـرون أهميـة هـذا العمـل فـي إحـراج العـدو، وإرهاقـه ومباشـرة الضـغط عليـه اقتصـادياً. وعرفـت هـذه العملية بعد ذلك بـ (الحصار الاقتصادي)، واستعملها نابليون ضد بريطانيا، كما استعملت مـرات أخـرى مـن قبـل القـادة العسكريين في الحروب وتستغلّها اليوم أمريكا في محاصرة خصومها على يد مجلس الأمن.

تصفية قواعد المشركين واليهود:

وبعد أن تمّ للنبي ﷺ إرهـاق العـدو وإذلالـه، وبعـد أن فشلت آخر محاولة للعدو في التجمع للقضاء على المعسكر

الإسلامي في حرب (الأحزاب). بدأ بضرب قاعدة العدو، وتصفية ما تبقى له من نفوذ في الجزيرة، وسقطت القاعدة أمام الزحف الإسلامي.

وصفح النبي ﷺ عن كل جرائم قريش وعدوانها في كرم ونبل لا نجد نظيراً لهما في تاريخ الصراع والحروب ، واستمر الزحف على سائر مراكز تجمّع العدو في أطراف الجزيرة، وانهارت هذه المراكز وأحداً بعد آخر، أمام الجيش الإسلامي الفاتح... واستسلمت الجزيرة للدين الجديد، وفرضت الدعوة سلطانها على أطراف الجزيرة.

تحصين القاعدة الإسلامية:

وخلال هذه الأعمال، كان رسول الله ﷺ يعمل لتحصين المدينة، بتطهيرها من العناصر المخرّبة والمنافقين واليهود، الذين كانوا يكيدون للإسلام والمسلمين.

فكان النبي ﷺ يعمل في وقت وأحد لضرب معاقل

العدو وقواعده في الجزيرة، كما كان يخطّط ويعمل لتحصين القاعدة الإسلامية في الجزيرة، وتطهيرها من المنافقين واليهود، ويمارس خلال هذه المهمة وتلك مسؤوليته الرسالية في الدعوة، وتربية الشخصية الإسلامية، وتكوين المجتمع الإسلامي، وترسيخ العقيدة الإسلامية في النفوس.

واستطاع رسول الله ﷺ بعد هذا الشوط الطويل الذي قطعه في ثلاث وعشرين سنة بعد البعثة من إخضاع الجزيرة كلها لشريعة الله، وتولّى فيها على زمام الحكم، وإدارة المجتمع بما في ذلك من شؤون الإدارة والمال والجيش والقضاء.

وانقادت الجزيرة بكل أطرافها للدعوة، واستسلمت لها في انقياد، وانتظمت في مجتمع وأحد يحكمه الإسلام.

هذا إجمال من تفصيل عن الجانب القيادي والإداري

من حياة رسول الله ﷺ، والتخطيط الذي امتدّ على مدى ربع قرن من حياته ﷺ. والذي يدرس السيرة النبوية، والأعمال التي قام بها النبي ﷺ بإمعان ودقة، في مكة وفي المدينة، يجد أنّها كانت تنتظم جميعاً في مخطط وأحد، وينتهي هذا المخطط إلى تسلم الحكم في الجزيرة، وتحكيم التوحيد وشريعة الله فيها، ونشر الدعوة وترسيخها في نفوس الناس... هذا ورسول الله ﷺ معصوم، يعصمه الله من الزلل، ويوحي إليه بأمره وحكمه، ويسدّده في كل خطوة وعمل.

* * *

وكما نرى في هذا الشرح أن مسألة الحكم مسألة جوهرية في هذه الرسالة وليست مسألة مؤقتة، أو أمراً هامشياً في هذا الدين.

وأنّ هذا الدين لا تنتهي رسالته عند دعوة الناس

وإبلاغهم شريعة الله وأحكامه، وردعهم عن الخضوع للأوثان والعبادة لغير الله. بل إنّ من صميم هذه الرسالة، أن يتولى المنهج الإلهي الحكم في حياة الناس، وليس هذا الدين مجموعة من (النصائح والمواعظ الدينية) التي تلقى على المنابر ويتلقاها الناس بالقبول، ويعرض على غيرهم من الناس في سلام، وإن كان ذلك من صلب هذا الدين، وإنّما هو منهج في التشريع ومشروع للتنفيذ، ومخطط للتحكيم، ودعوة ودولة، وقوة وصلابة في تحقيق ذلك كله.

الدعوة والدولة في هذا الدين:

ولئن كانت (الدعوة) قد سبقت (الدولة) في حياة رسول الله ﷺ، فإنّ كل شيء في سيرة رسول الله ﷺ يشهد بأنّ هذه الدعوة كانت ملتحمة بفكرة الدولة، وأنّ

هذه الدعوة لم يتأتّ لها أن تغزو جزءاً كبيراً من الأرض، وأن تنشر النور والوعي في كل مكان، لولا أن كانت دولة تسندها.

وقد كان ضمن المخطط الكبير، أن يسبقْ الدولة وجود الدعوة، وان يسبق هذه الدولة تغيير نفسي عميق للناس، وبناء للشخصية الإسلامية، على أسس عقائدية متينة، لتكون الدولة قائمة على أُسس إيمانية هادفة.

فلولا الدعوة لم تكن الدولة التي أقامها هذا الدين قادرة على تحقيق رسالة الله على وجه الأرض، ولم تكن هذه الدولة ذات رسالة تغييرية في حياة الإنسان.

فقد عاشت الدعوة في مكة ثلاثة عشر عاماً من دون دولة، فلم يؤمن بها غير قلة في مكة، وعاشت هذه الفترة في أزمة ومحنة قاسية. ولم تنتقل الدعوة إلى المدينة، حيث وجدت الفرصة الكافية لإقامة الدولة، حتى استجابت

الجزيرة كلها للدعوة، وانطلقت رسل الدعوة إلى خارج الجزيرة، ولم يمر عليها قرن، حتى انفتحت للدعوة أقطار واسعة في آسيا وافريقية وأوروبا أيضاً.

وليس ذلك إلاّ لهذا الالتحام الوثيق بين الدعوة والدولة في الإسلام؛ لأن أمر الدولة والحاكمية من صميم هذا الدين وجوهره، وليس شيئاً طارئاً عليه، حصل صدفة في حياة رسول الله ﷺ وبعده، دون أن يكون هناك مخطط واسع لتحقيق هذه الدولة.

بعد عصر الرسالة

وضوح الرؤية:

لم يختلف المسلمون في أمر كما اختلفوا في أمر الخلافة والحكم بعد رسول الله ﷺ، ولم تحدث فتنة بين المسلمين كما حدث بعد رسول الله ﷺ.

وقد ذهب المسلمون في هذه الفتنة، مذاهب شتى من الرأي والمعتقد، إلاّ أنّ الذي يلفت النظر حقاً في هذه الفتنة، التي لم تخمد جذوتها بعد، أنّ المسلمين مهما اختلفوا في شيء، فلم يختلفوا في أصل وجوب إقامة الحكم الإسلامي بين المسلمين، ومبايعة حاكم من بين المسلمين، يحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهو أمر عجيب حقاً، ملفت للنظر، فقد كانت المسألة من الوضوح عند المسلمين حداً لا يقبل أدنى تشكيك. فلم يحدثنا التاريخ، أنّ وأحداً من المسلمين كان يقول، أو يرى في السقيفة التي احتدم المسلمون فيها في أمر الخلافة؛ أن

لا حاجة إلى خليفة أو حاكم، وبوسع المسلمين أن يعيشوا كما كانوا يعيشون في الجاهلية من غير خلافة أو إمامة إسلامية.

وفيما بعد هذا اليوم أيضاً، لم نجد في تاريخ المذاهب والنحل أن حدث بين المسلمين خلاف في هذه المسألة.

واستمرت مسألة أصالة الحاكمية في الإسلام، ووجوب الالتفاف حول الحاكم الإسلامي ومبايعته وطاعته أمراً لا يشك فيه أحد، وإن كان الشك يراود المسلمين كثيراً، فيمن كانوا ينصبون أنفسهم أئمة وقيّمين على المسلمين، وفي الشروط التي تؤهل أصحابها لتسلم الحكم فيما بين المسلمين(١).

---

(١) عدا فرقة واحدة من الخوارج تعرف بالنجدات، وقد اندثرت تاريخياً، ولا وجود لها اليوم، كانت ترى أن لا حاجة للمسلمين إلى إمام. راجع شرح المقاصد للتفتازاني ٥: ٢٣٥.

ومهما كان انحراف الأجهزة التي تولت الحكم على امتداد التاريخ الإسلامي، وبعدها عن الأصالة الإسلامية والمفاهيم والمقاييس الإسلامية في الحكم، فإنّ المسلمين بقوا يؤمنون رغم كل هذه الانحرافات، أنّ الحاكمية لا يجوز أن تنحرف عن هذا الدين، وحتى الحكام الذين كانوا يتناوبون على الحكم في اتجاه منحرف عن هذا الدين، كانوا يحكمون باسم هذا الدين، وكان الفقه الإسلامي هو القانون الذي يحقّ له أن يحكم حياة الناس في شؤونهم الفردية والاجتماعية، وعلاقاتهم الداخلية والخارجية.

ولا يعني ذلك تبرير هذا الانحراف في الحكم في عصور الخلافة الإسلامية، إلاّ أنّ أصالة الحاكمية في هذا الدين كانت تحظى - حتى سقوط الخلافة العثمانية - بوضوح كامل لدى جمهور المسلمين، ولم يكن أحد من

المسلمين يفكر يومذاك، إن الدين شيء والدولة شيء غريب عن الدين، ولا يتصل به بسبب، وأنّ من الجائز أن يحافظ المسلمون على دينهم بينما يحكمهم حاكم كافر، وينظّم حياتهم قانون غريب عن تراث هذه الأمة وفقهها.

التآمر على هذا الدين:

ولم يختف هذا الوضوح، إلاّ بعد جهد كبير بذله الاستعمار في تغيير ملامح هذا الدين لدى العامة من المسلمين، وتحويله إلى دين يشبه المسيحية (التي تؤمن بها أوروبا وافريقية) يقنع من الأرض بما تحيطه جدران الكنائس، ويقنع من حياة الناس بالساعات القليلة التي يقضيها الناس في هذه الكنائس من أيام الآحاد، ويقنع من الإسهام في الحياة الاجتماعية،بما تتطلبه التقاليد الاجتماعية حين يموت أحد ويجري تشييعه ودفنه.

وقد حاول الاستعمار أن يعطي نفس الطابع للإسلام في نظر المسلمين، ويفقده أصالته وحيويته، واهتمامه الكبير بمسائل الحياة وشؤونها، ويفصل الدين عن الدولة وعن شؤون الحياة الأخرى.

ومنذ ذلك التاريخ أخذ هذا الوضوح بالاختفاء، وأخذ المسلمون - في الغالب - لا يعون من الدين إلاّ هذه الطقوس التي تجري أحياناً عن إيمان وإخلاص، وتجري أحياناً أخرى كعادات وتقاليد اجتماعية لابد من الإتيان بها.

ولا يستعيد المسلمون كيانهم وشخصيتهم على وجه الأرض، ولا يمكن أن تنطلق هذه الدعوة في تحقيق رسالة الله، إلاّ حينما يعي المسلمون حقيقة دينهم، وواقع هذه الرسالة، وألاّ حينما ينبثق من هذا الوعي قوة إسلامية على وجه الأرض، وكيان اجتماعي وسياسي ذو جذور وأبعاد رسالية وعقائدية.

موقف أهل البيت عليهم السلام من مسألة الحكم:

من نافلة القول أن نتحدث عن انحراف الأجهزة التي تولت الولاية والحاكمية في المسلمين، في فترات طويلة من خلافة المسلمين.

ففي العصر الأموي والعصر العباسي والعصور التي تلت هذا العصر، بلغ انحراف الخلافة الإسلامية، حداً لا يصحّ ولا يمكن الدفاع عنها.

وقد تصدى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لتصحيح هذا الوضع الشاذ في جهاز الحكم الإسلامي، وتعديل مسيرة الحكم الإسلامي. ولا نحتاج إلى كثير من العناء والبحث، لنكتشف أبعاد الدور القيادي والتخطيط الهادف الذي كان يمارسه وينفذه أهل البيت عليهم السلام في إعداد الأمة، في حركة تغييرية واسعة، لرفض سلطان الباطل، والمطالبة بإعادة الحكم الإسلامي إلى مجراه الصحيح. وآية هذه الحركة

الواعية في تاريخ أهل البيتعليهم السلام، للمطالبة بتقويم ما انحرف من مسيرة الحكم، ثورة الحسين من أهل البيتعليهم السلام.

فهوعليه السلام كان يصرّح معلناً أهداف حركته الكبرى:

(إنّي لم اخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب).

ويرفض بيعة يزيد بقوة وإصرار، ويرفض أن يكون (يزيد بن معاوية) أهلاً لإمامة المسلمين، وهو من تعرفه الأمة معاقراً للخمر، لاعباً للقمار، سفّاكاً للدماء، محلّلاً لما حرّمه الله على عباده، مقترفاً للكبائر، منتهكاً لحدود الله تعالى.

والأئمة الذين تسلموا مسؤولية الإمامة بعد الحسينعليه السلام،

من أهل البيتعليهم السلام، لم يختلف موقفهم من انحراف الحكومات المعاصرة لهم، إلا بقدر ما يتعلق بضرورات المرحلة ومتطلباتها.

فقد كان أهل البيتعليهم السلام إذن يخططون لتقويم جهاز الحكم الإسلامي، وتعديل ما انحرف منه، وتسلم الحكم والولاية، والقيمومة على حياة المسلمين.

وليس من شك أنّ الأسلوب الذي كان يمارسه الإمام الحسينعليه السلام، ضمن هذا المخطط، كان يختلف عن الأسلوب الذي كان يمارسه الإمام الصادقعليه السلام من أهل البيتعليهم السلام. غير أنّ اختلاف الأسلوب كان نابعاً من اختلاف في مرحلة العمل، وملابسات الظرف الاجتماعي. ولا يصعب على القارئ أن يكتشف وحدة الهدف، والتخطيط والعمل، لتصحيح ما انحرف من خطّ الحكم الإسلامي، وممارسة الحاكمية في حياة الناس، بالصورة التي يرتضيها

الله تعالى ضمن هذه الفترة التاريخية عند أهل البيت عليهم السلام.

فقد عاش الأئمة من أهل البيت عليهم السلام إلى عهد الإمام الحسين عليه السلام، محنة انحراف الجهاز الذي يتولى الحكم بين المسلمين، فكان العمل منصبّاً على استعادة الحكم إلى مجراه الإسلامي الصحيح.

ومنذ هذا العصر - أي أواسط العصر الأموي - تسرّب الانحراف من الحكم إلى جسم الأمة، بصورة خطيرة، وأصبح الحاكمون يعملون لإسناد موقعهم السياسي، وإزالة المعارضة السياسية بكل ما يتأتى لهم من إشاعة الفحشاء والفساد والانحراف في صفوف المسلمين، ويستعينون ببعض من يهون عليهم أمر دينهم من العلماء في تحريف هذا الدين وتشويه معالمه.

وواجه أهل البيت عليهم السلام هذه الحالة بوعي وجهاد طويل،

للمحافظة على الصورة الحقيقية لهذه الرسالة، وصيانتها من التشويه والانحراف، والمحافظة على هذه الأمة، وإيجاد تغيير جذري عميق في جسم الأمة، وتكوين طليعة واعية تعي هذا الدين وعياً صحيحاً؛ لتكون نواة للمستقبل استعداداً لإعادة الحكم إلى مجراه الصحيح، وتسلم الحاكمية في هذه الأمة.

ولا تهمّ بعد ذلك مسألة التوقيت، ومتى يقوم الحكم على القواعد الصحيحة التي يريدها الله، وإنّما المهم التخطيط الواعي، والعمل المخلص لله، والصبر والمثابرة، وضبط النفس والأعصاب في مراحل العمل الطويلة الشاقة.

وليس بوسعنا – هنا – أن نلخّص الأدوار التي اجتازها أهل البيت عليهم السلام، والتخطيط الواعي الذي وضعوه لمواجهة الواقع الاجتماعي وتعديله وتغييره في هذه الأدوار، والعمل المكثف الذي قام به أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه

الفترة في النطاق التربوي الخاص. ولا يسع صدر هذا الحديث لأكثر من هذا الحد، إلاّ إنّنا نخرج على كل حال، من هذا الاستعراض السريع بنتيجة قاطعة، هي أنّ أهل البيت عليهم السلام، كانوا يعملون دائماً لإعادة الحكم الإسلامي إلى مجراه الصحيح، وإرساء هذا الحكم على قواعد صلبة من هذه الرسالة.

وبعد، فقد أطلنا الحديث بعض الشيء، واسترسلنا كثيراً مع تاريخ هذا الدين، وظهوره في الجزيرة العربية، والملابسات التي أحاطت ظهور هذا الدين، وتوسّعه في الجزيرة، وعلى وجه الأرض، ولم يكن هذا الاسترسال عفواً من الحديث، واسترسالاً في التاريخ غير مقصود، وإنّما قصدت إلى ذلك قصداً. فإنّ كل غموض يلابس فكرة أصالة الحاكميّة والسّيادة في هذا الدين ونظرية ولاية

الفقيه في نظري، تعود جذوره إلى غموض في فهم حق هذا الدين في الحكم، وأصالة الحاكمية فيه. وإذا اكتسب هذا الجانب من القضية الوضوح الكافي، فإنّ من السهولة بمكان أن نفهم سائر أطراف القضية.

الفهرس